من ظرفاء العصر العباسي :

أبو دلامـــــة ! ...

توفي سنة ١٦١ هـ

للأستاذ ضحى إبراهيم الصالح

— ٢ —

وحين ندرس نفسية هذا الظريف من خلال نصه ونوادره — وهي غاية ما وصل إلى أيدينا من حياته — سنضطر إلى ذكر بعض مداعباته لنستدل بها على شيء مما نراه . ومن تلك المداعبات التي نشير بها إلى ما كان من انسجام بين أبي دلامة وزوجته اشتراكهما في خداع المهدي وزوجته الخيزران : فقد دخل أبو دلامة يوماً على المهدي وهو يبكي . فقال له مالك ؟ قال : ماتت أم دلامة ، وأنشده فيها :

وكنا كزوج من قطاً في مفازة ... لدى خفض عيش ناعم مؤنق رغد

فأفردني ريب الزمان بصرفه ... ولم أر شيئاً قط أوحش من فرد !

فأمر له بثياب وطيب ودنانير ، وخرج . فدخلت أم دلامة على الخيزران فأعلمتها أن أبا دلامة قد مات فأعطها مثل ذلك ، فلما التقى المهدي والخيزران عرفا حيلتهما فجعلا يضحكان لذلك ويعجبان منه[1] .

ومثل هذا الاشتراك في الخداع الذي كان يمضي طليقاً حتى يصل إلى الخليفة وزوجته — يدل على تفاهم عميق بين الزوجين ، وعلى وحدة في نظرتهما إلى الحياة ، فكأنهما يشرفان على العالم من منظار واحد فيه مرح النكتة ، ولطف الدعابة .

وهنا نرغب في معرفة اسم هذه المرأة الخبيثة — زوجة شاعرنا الظريف — فنمضي به علينا المصادر كأنها لا ترى في ذكره فائدة .

ونعلل هذا — كما يبدو لنا — بأن أمثال هذا الظريف تروى في كتب الأدب حيلتهم للاشارة إلى جانب يستحق الدراسة فيهم وهو ظرفهم ومرحهم وسلاطة ألسنتهم ، وما بعد هذا الجانب فأمور تتعلق بأحدهم من قريب أو بعيد كما تتعلق بآحاد الناس فلا تستأهل الدراسة ، ولا تستحق التسجيل .

لذلك سنمر — في أثناء عرضنا لحياة أبي دلامة — مروراً رفيقاً بما يتصل بأسرته ، فنعلم أنه كان له أولاد غير دلامة وأن فيهم بنتاً قبيحة ولكننا لا نعرف أسماءهم ، ولا نحاول أن نعرف ما إذا كان له أخوة ، فقد سكتت عن هذا كله النصوص التي بين أيدينا . ولكن الذي يجدر بنا أن نعرفه منزلة هذا الظريف لدى أبي العباس السفاح ، وأبي جعفر المنصور والمهدي أيام انقطع إلى مجالسهم ومنادمتهم .

ويبدو أنه كان رفيع المكانة لدى السفاح ، وأنه — للطف محله منه — كان ينال ما يشاء من المطالب ولا سيما إذا أحسن في أسلوب الطلب : من ذلك أنه وقف يوماً بين يدي السفاح — فقال له : سلني حاجتك . قال أبو دلامة : كلب أتصيد به . قال: أعطوه إياه. قال: ودابة أتصيد عليها. قال : أعطوه دابة. قال : وغلام يصيد بالكلب ويقوده . قال : أعطوه غلاماً . قال : وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه . قال : أعطوه جارية . قال : هؤلاء يا أمير المؤمنين عبيدك فلا بد لهم من دار يسكنونها . قال : أعطوه داراً تجمعهم . قال : فإن لم تكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون ؟ قال : قد أعطيتك مائة جريب[1] عامرة ومائة جريب غامرة . قال : وما الغامرة ؟ قال : ما لا نبات فيه؟ فقال : قد أقطعتك أنا يا أمير المؤمنين خمسمائة ألف جريب غامرة من فيافي بني أسد . فضحك وقال : اجعلوها كلها عامرة . قال : فائذن لي أن أقبل يدك . قال : أما هذه فدعها . قال : والله ما منعت عيالي شيئاً أقل ضرراً عليهم منها[2] .

فانظر — في هذه القصة — إلى مكانة أبي دلامة لدى السفاح ، تلك المكانة التي تهيىء له أن يجاب له كل طلب بعد أن يصير عليه الخليفة فلا يسكته ، بل يتقبل جرأته ويثيبه عليها فيجزل ثوابه ؛ ثم انظر — كما قال الجاحظ — « إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها : ابتدأ بكلب فسهل القصة به ، وجعل يأتي بما يليه على ترتيب

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٥٥ .

(١) الجريب من الأرض : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع وقيل عشرة آلاف ذراع .

(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٦

وفكاهة ، حتى نال مالو سأله بديهة لنا وصل إليه ! »

وكما أحسن السفاح إلى أبي دلامة تجد الظريف مقيما على الوفاء له بمدحه في كل مناسبة وبذكره بكل خير ، بل لقد أقام يذكر جميله حتى بعد موته ، فرثاه بأبيات كثيرة . ومما قاله في قصيدته الهمزية :

وكنا بالخليفة قد عقدنا ... لواء الأمر فانتقض الالواء
فنحن رعية هلكت ضياعاً ... نسوق بنا إلى الفتن الرعاء

ولم يكتف بهذا ، بل إنه دخل على المنصور والناس عنده يهنئونه في السفاح فأنشأ يقول :

أمسيت بالأنبار يا ابن محمد ... لم تستطع عن مقرها تحويلا
ويل عليك وويل أهل كلهم ... ويلا وعولا في الحياة طويلا
فلتبكين لك النساء بعبرة ... وليبكين لك الرجال عويلا
مات الندى[1] إذ مت يا ابن محمد ... فعلته لك في الثراء[2] عديلا
إني سألت الناس بعدك كلهم ... فوجدت أسمح من سألت بخيلا[3]
أشقوق أخرت بعدك الفتى ... تدع العزيز من الرجال ذليلا
فلأحلفن يمين حق برة ... بالله ما أعطيت بعدك سولا[4]

فلما سمع الناس هذه الأبيات بكوا . فغضب المنصور غضباً شديداً وقال : لئن سمعتك تنشد هذه القصيدة لأقطعن لسانك . فقال أبو دلامة : يا أمير المؤمنين إن أبا العباس أمير المؤمنين كان لي مكرماً وهو الذي جاء بي من البدو كما جاء الله بإخوة يوسف إليه ، فقل كما قال يوسف لإخوته : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) فسرى عن المنصور وقال : قد أقلناك يا أبا دلامة ، فسل حاجتك . فقال : يا أمير المؤمنين ، قد كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً وهو مريض ولم أقبضها . فقال المنصور : ومن يعرف هذا ؟ فقال : هؤلاء ، وأشار إلى جماعة ممن حضر ، فوثب سليمان بن مجالد وأبو الجهم فقالا : صدق أبو دلامة ، نحن نعلم ذلك . فقال المنصور لأبي أيوب الخازن وهو مغيظ : يا سليمان ادفعها إليه[1] .

ولو لم يكن السفاح يكثر العطاء والصلة لأبي دلامة مقربا إياه على سواه لما مدحه الشاعر هذا المدح العظيم ، ولما رثاه أمام المنصور ذاك الرثاء البليغ ، ولما بقي مقيما على الوفاء له . ويظهر أن لحذق أبي دلامة في المسألة ومهارته في إظهار حاجته ولباقته في طلب ما يريد — أكبر الأثر في رغبة الخلفاء العباسيين بوصله ولا سيما المنصور الذي اشتهر ببخله ، ومع ذلك « لم يصل إلى أحد من الشعراء ما وصل إلى أبي دلامة منه خاصة » كما قال صاحب الأغاني[2] .

ومن سبيلك أن تعلم أن أبا دلامة دخل على المنصور يوماً فأنشده :

أما ورب العاديات ضبحا[3] ... حقاً ورب الوريات قدحا
إن المنيرات على صبحا ... والناكثات[4] من فؤادي قرحا
عشر ليال بينهن ضبحا[5] ... يحملن مالي كل عام صبحا ...

فقال له أبو جعفر : وكم تذبح يا أبا دلامة ؟ قال : أربعاً وعشرين شاة . فقرض له على كل هاشمي أربعة وعشرين ديناراً ، فكان يأخذها منهم ، فأتى العباس بن محمد[6] في عشر الأضحى يتنجزها . فقال : يا أبا دلامة ، أليس قد مات أبوك ؟ قال بلى . قال : انقصوه دينارين . قال : أصلح الله الأمير لا تفعل ، فإنه ترك علي ولدين . فأبى إلا ينقصه . فخرج وهو يقول :

أخطأك ما كنت ترجوه وتأمله ... فاغسل يديك من العباس بالياس
واغسل يديك بأشنان[7] فأنقهما ... مما تؤمل من معروف عباس
جزاك ربك يا عباس عن فرج ... جنات عدن وعني جرزتي[8] آس

فبلغ ذلك أبا جعفر فضحك ، وافتاظ على العباس ، وأمره

(١) وفي رواية : هلك الندى لما نبت .
(٢) الثراء : لغة في الثرى (٣) وروى هذا البيت برواية أخرى :
ولقد سألت الناس بعدك كلهم ... فوجدت أكرم من سألت بخيلا
(٤) السول (بهمزة وبغيرها) ما سألته . ويروى أول البيت أيضاً : ولقد جلت ...

(١) الأغاني ج ١٠ ص ٢٤٠
(٢) الأغاني ج ١٠ ص ٢٣٥
(٣) الضبح : صوت أنفاس الخيل إذا عدت ليس بصهيل ولا حمحمة
(٤) نكلا القرح : قعره قبل أن يبرأ فيندى
(٥) هكذا وجدنا في الرواية ، وفي أخرى (صبحا) والمعنى غير واضح فيهما (٦) كان هذا الرجل مشهوراً بالبخل
(٧) الأشنان (بالضم) حمض تغسل به الأيدي
(٨) الجرز : الحزمة